

---

الفصل السادس

مشاهير القضاة

---

obeikandi.com

### الإمام أبو يوسف

قد شهدت بغداد عاصمة العباسيين مجموعة من هؤلاء الأفاضل في قمتهم الإمام أبو يوسف الذي كان قاضي بغداد في عهد المهدي والهادي، ثم أصبح قاضي القضاة في عهد الرشيد، وهو أول من لقب بهذا اللقب وأول من ابتكر زياً خاصاً للقضاة، ذلك الزي الذي اقتبسه العالم كله من فكر أبي يوسف.

ومما يذكر عنه أنه رد شهادة بعض خاصة الرشيد فسأله الرشيد في ذلك فقال: سمعته يقول أنا عبد الخليفة، فإن كان صادقاً فلا شهادة لعبد، وإن كان كاذباً فشهادته مردودة لكذبه ولأنه أحل نفسه محل العبيد، وانساق الخليفة في الجدل معه، فسأله: وهل تقبل شهادتي؟ فقال أبو يوسف: في الحق أنها لا تقبل، ودهش الرشيد وسأل: لماذا؟ فأجاب: لأنك تتكبر على الخلق، ولا تحضر الجماعة مع المسلمين، وهذا يخدش العدالة التي هي شرط لقبول الشهادة، فتأثر الرشيد من ذلك، وبنى في القصر مسجداً أذن للامة بالصلاة فيه، واختلط بهم ليزيل الكبر، وصلى معهم ليحضر الجماعة<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

### يحيى بن أكثم التميمي وأحمد بن أبي داود

ومن القضاة المشاهير يحيى بن أكثم التميمي وأحمد بن أبي داود، وقد شغلا بالتناوب منصب قاضي القضاة خلال عهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وكان لهما نفوذ واسع المدى في بلاط هؤلاء الخلفاء، وقد ظهر يحيى أولاً وكان صنو المأمون ثم غضب عليه وأبعده، وولى أحمد بن أبي داود المعتزلي وقد ظل هذا في عمله أمداً طويلاً حتى عهد المتوكل، وفي سنة ٢٢٣ مرض وعجز عن العمل فقام ابنه أبو الوليد مقامه، ولم يكن كأبيه في حسن السيرة والكفاءة فغضب عليه المتوكل وعزله، وأعاد يحيى بن أكثم إلى الرضا، وأسند له وظيفة قاضي القضاة من جديد وأضاف إليه حق النظر في المظالم<sup>(٢)</sup>.

(٢) الجزء الثالث من موسوعة التاريخ الإسلامي د. أحمد شلبي ص ١٨٦.

(١) تاريخ بغداد والأغاني.

### عبد الرحمن بن حجية

ولى عبد العزيز بن مروان عبد الرحمن بن حجية القضاء بمصر، وكان من أئمة الناس وأعلمهم، روى أن رجلاً من أهل مصر سأل ابن عباس عن مسألة، فقال له ابن عباس: من أى الأجناد أنت؟ قال: من مصر. قال ابن عباس: تسألنى وفيكم ابن حجية.

وقد جمع له القضاء والقصاص وبيت المال، فكان له من ذلك ألف دينار فى العام، ولكنه كان لا يحول عليه الحول وعنده منها شيء، فقد كان يفضل عليه أهله وإخوانه.

ويروى عنه أنه عرضت عليه قضية عذبت فيها امرأة أمة لها، فقضى ابن حجية بعنق الأمة، وجاءه رجل يقول له: إنى نذرت ألا أكلم أخى أبداً فقال له: إن من قطع ما أمر الله به أن يوصل حلت عليه اللعنة.

وابن حجية هو القائل: إن القاضى إذا قضى بالهوى احتجب الله عنه واستتر، وهو القائل أيضاً: لأن مقرض دينارين فيردان لك، ثم تقرضهما مرة أخرى فيردان لك، أحب إلى الله من أن تتصدق بهما<sup>(١)</sup>.

وقد دامت مدة قضاائه اثنتى عشرة سنة وتوفى سنة ٨٣هـ.

\*\*\*

### توبة بن نمر الحضرمي

ومن قضاة مصر المشاهير توبة بن نمر الحضرمي وكنيته أبو محجن، وقد ولاه القضاء الوليد بن رفاعه سنة ١١٥هـ، وشخصية توبة تتحدث عنها امرأته عفراء الأشجعية، وكانت امرأة بارزة، قالت له عقب أن ولاه ابن رفاعه القضاء: أما والله يا توبة ما حاباك ابن رفاعه بهذه الولاية، ولو أنه وجد فى قيس كلها من يسد مسدك، أو يضطلع بهذا الأمر لآثره عليك، وقدمه وأخرك وقد أوردنا من قبل أن توبة حذر امرأته من الشفاعة فى قضية أو التدخل فى أمور القضاء، وأنه ذكر لها أنها تطلق لو فعلت شيئاً من ذلك.

(١) الكندى: قضاة مصر ص ١٣ وما بعدها (تلخيص).

ويروى أن رجلاً وامرأته اختصما عنده، وطلقها الرجل، فقال توبة للرجل: متعها (أى أعطها مالا متعة لها) فرفض الرجل هذه النصيحة، ولم يستطع القاضي إرغام الرجل على ذلك لأنه لم يكن واجبا عليه، وبعد حين جاء هذا الرجل أمام توبة شاهداً فى قضية، فقال له توبة: لست أقبل شهادتك. قال الرجل: ولم؟ قال توبة: إنك أبييت أن تكون من المحسنين، وأبييت أن تكون من المتقين، ولم يقبل له شهادة.

ويروى أن توبة كان لا يملك شيئاً إلا وهبه ووصل به إخوانه، وأفضل به عليهم، فلما ولى القضاء جىء له مرة بغلام من حمير لا تملك يده شيئاً إلا وهبه وبذره، فأراد توبة أن يحجر عليه لسفهه، فقال الغلام لتوبة: وأنت من يحجر عليك أيها القاضي؟ فوالله ما نبلغ فى أموالنا عشر معشار تذكيرك. فسكت توبة ولم يحجر عليه<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

### بكار بن قتيبة

ومن مشاهير القضاة بمصر بكار بن قتيبة، وقد ولاه المتوكل سنة ١٤٦هـ ويقول الكندى إنه كان عفيفاً عن أموال الناس، محموداً فى عمله، وقامت الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢) وبكار يقوم بأمر القضاء، وكان أحمد بن طولون يعظم بكاراً ويرفع قدره، ثم اختلف ابن طولون مع الموفق فطلب ابن طولون من بكار أن يلعن الموفق، فلم يقبل بكار، فغضب عليه ابن طولون، فلما تبين ذلك بكار من ابن طولون وظهرت له موجدته عليه كان يقول: ألا لعنة الله على الظالمين، فقيل لأحمد بن طولون إن بكاراً قصدك بهذا القول فطالبه برد الجوائز التى كان قد أجازها بها، فقال بكار: هى بحالها. فوجه ابن طولون من يأخذها فوجدها كما هى بأختامها فأخذها. وسجنه ابن طولون فى دار اختارها لذلك، وكان بكار يطل من كوة بالدار فيلقى الدروس على تلاميذه، ويملى عليهم، ويفتى من يحتاج إلى فتوى، ومرضى أحمد بن طولون مرض الوفاة فأرسل إلى بكار يستحله، فقال للرسول: قل له أنا شيخ كبير، وأنت عليل مدنف، والملتقى قريب،

(١) الكندى : قضاة مصر ص ٣٦ وما بعدها (تلخيص).

والله هو الحاكم بيننا، وتوفى أحمد بن طولون فعرف بكار ذلك فقال: مات البائس، وقيل لبكار: انصرف. فقال: الدار بأجرة، وقد أنست بها، وما مضى فعلى غيرنا، وما كان في المستأنف فعلى أجره. وأقام بالدار حتى مات بعد أربعين يوماً من موت ابن طولون.

وقد ظلت ولايته ٢٤ سنة ونصف سنة، ومات سنة ٢٧٠هـ<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

### عز الدين بن عبد السلام

ومن مشاهير قضاة مصر عز الدين بن عبد السلام (١٢٦١م) المنقب بـ "سلطان العلماء" أو "بائع الملوك"<sup>(٢)</sup> وسبب هذه التسمية أنه رأى المماليك الذين اشتراهم السلاطين من أموال الدولة قد أصبح في يدهم الحول والسلطان، وأصبحوا أمراء البلاد، فأعلن بطلان جميع الصفقات التي يباشرونها من بيع وشراء ورهن... لثبات الرق عليهم، وقرر أنه من الضروري أن يباعوا هم لحساب الدولة، وأن توضع أثمانهم في بيت المال: وأن يعتقهم من يشتريهم، وبدون ذلك يظلون أرقاء مملوكين للدولة، فثار الأمراء لهذا الرأي وهموا بقتل الشيخ، وأصر الشيخ على رأيه، ولما لم يستطع تنفيذه استقال من وظيفته وقرر مصر، فأعد حمارين حمل عليهما أمتعته وآلة وسار تجاه الشام، وحينئذ هاج الناس، وظهرت بواذر ثورة أخافت السلطان، فلحق السلطان به واسترضاه وأعادته على أن ينفذ رأيه، وتم للشيخ ما أراد فعرض السلطان المملوكي للبيع وقبض ثمنه ووضع في بيت المال ثم أعتقه مشترطاً، ثم عرض الأمراء واحداً واحداً للبيع وغالى في ثمنهم، فاشتري السلطان بعضهم وأعتقهم بعد أن دفع أثمانهم، واشتري له الحرية بعضاً آخر، وهكذا، وربحت خزانة الدولة ملايين الجنيهات التي كان يملكها هؤلاء<sup>(٣)</sup>.

ولعز الدين بن عبد السلام مواقف رائعة ترتبط بالصراع ضد الصليبيين

(١) الكندي: قضاة مصر ص ١٤٩ وما بعدها (تلخيص). (٢) كتاب "بائع الملوك" للدكتور محمد حسن عبد الله.

(٣) ابن إياس: تاريخ مصر ج ١ ص ٩٥ وابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٢.

والنتار وضد الانحراف الذى ظهر فى بعض قادة عصره، وتغلب صوت الشيخ على كل الأصوات الظالمة، حتى على صوت السلطان الصالح إسماعيل، فإن الشيخ أفتى بخلعه وأثار الناس عليه وتم له ما أراد<sup>(١)</sup>.

ونحنى تقديراً لذكرى بائع الملوك، متمنين أن يصبح هذا العالم نموذجاً للعلماء الباحثين عن الحق والراغبين فى الخلود.

\*\*\*

### يحيى بن يحيى الليثى

وإذا تركنا مصر وذهبنا إلى المغرب والأندلس وجدنا قضاة يزدهى بهم التاريخ، ويمكن أن نعد فى القمة من هؤلاء الإمام يحيى بن يحيى الليثى الذى اتسع نفوذه اتساعاً واسعاً فى عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل، وأخذ يعين تلاميذه ومريديه فى المناصب القضائية المختلفة وأحياناً فى المناصب السياسية، وبذلك زاد نفوذ الفقهاء والقضاة حتى أصبح هذا العصر يسمى "عصر نفوذ الفقهاء"<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

### القاضى 'عياض'

وفى المغرب والأندلس أيضاً هناك قاض بلغ الغاية فى الشهرة، هو القاضى "عياض" سنة ٥٤٤هـ وقد ولد عياض فى سبتة وتلقى علومه على ابن رشد وأساطين عصره الآخرين، ولما ظهر فضله جلس للتعليم ثم تولى القضاء فى سبتة وقرطبة، وله مؤلفات مهمة فى علم الحديث.

\*\*\*

### عياض بن عبيد الله الأزدي

واسم القاضى "عياض" يعيدنا مرة أخرى إلى مصر، فإن أحد قضاتها فى

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٤٤ .

(١) انظر التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ٥ د. أحمد شليبي.

أواخر القرن الأول الهجرى هو "عياض بن عبيد الله الأزدي" ويخلط بعض الناس بين الاثنين مع بعد الشقة في الزمان والمكان، وقد تولى عياض بن عبيد الله الأزدي سنة ٩٣هـ من قبل قررة بن شريك والى مصر، وصرف عنها بعد عام ثم تولى مرة أخرى بكتاب سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨، فلما مات سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز أقره في مكانه، ويذكر الكندي مراسلات كثيرة جرت بين الخليفة والقاضى حول بعض المشكلات التشريعية والقضائية<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

والحديث عن مشاهير القضاة في رحاب الإسلام له رونق وبريق خاص وهم كثر ومنهم من يزهو بهم التاريخ ويفخر بهم، ولو تتبعناهم جميعا سنكون في حاجة لمجلدات، ولذا سنتوقف عند هؤلاء العلماء الأجلاء وسيكون للحديث بقية بإسهاب في مؤلف آخر.

\* \* \*

(١) فضاة مصر ج ٣٢ ص ٢٩.